(الفصل الخامس)

شعر المهجر

في الوقت الذي كانت فيه جماعة الديوان تغني أدبنا العربي الحديث في العشر بالمفاهيم الجديدة ، والأفكار الحديثة والمعاني المبتكرة ، تلبية لدواعي العصر ، وتجد لمضامينه الاجتماعية والسياسية والفكرية والإنسانية ، كان أُدباء المهجر وشعراؤهم في المهجر الشمالي والمهجر الجنوبي ، يندفعون في هذا التيار التجديدي ، ليحققوا لإخوانهم في المشرق ما تفرضه عليهم بيئتهم الجديدة وحياتهم المعاصرة ، تجسيداً تتطلبه تلك الحياة في عالمهم الجديد ، وتأثراً بِمّا كانّ يجري في تلك البيئة من تطور لم تصل ريحه إلى شرقنا العربي .

بواعث الهجرة وظروف النشأة :

يجمع معظم الدارسين على أن وراء الهجرة بواعث اقتصادية وسياسية واجتماعية وأدبية ونفسية ، وهذه البواعث قد تظافرت جميعها أو بعضها على هجرة المئات من اللبنانيين والسوريين مِمن تهيأت لهم ظروف الهجرّة إلى القارات البعيدة .

وعلى الرغم من أن تلك الأسباب كانت كثيرة ومختلفة ، إلا أن العامل الاقتصادي كان أول العوامل التي دفعت بالمهجرين إلى أن يغادروا أوطانهم وينأوا عن أهليهم ويُعانوا ألم الفراق ، وحالات الغربّة ، بما يضني نفوسهم ، ويُعمق إحساسهم بحب الوطن فلقد أُصيبت الأقطار العربية في القرن التاسع عشر بضعف اقتصادي . نتيجة

الاقتصادية والسياسية التي عانت منها الدولة العثمانية ، بسبب تكالب الاستعمار
عليها ، وقد تمثل ذلك الضعف بقلة الانتاج الزراعي وضعف استغلال الأرض .
دفع الكثيرين إلى مغادرة البلاد سعياً إلى تحسين أحوالهم ، ولمّا سمعوه من استقبال
الأمريكية للوافدين عليها .

وتمثل الأسباب الاجتماعية والنفسيّة ، عوامل فاعلة في الهجرة ، فقد كان اللبنانيون
يستجيبون للمبشرين الأجانب الوافدين من أوربا وأمريكا . وحققت تلك الاستجابة
صلات وثيقة دفعت بهم إلى أن يجوبوا أقطار الأرض ، وأن يستجيبوا للتطلعات البعيدة
التي حفقتها صلتهم بالمبشرين .

كما أن هناك عاملاً تاريخياً نفسيّاً ، كان يحرك نفوسهم ، فالسوريون واللبنانيون
كانوا أحفاد أجدادهم الذين جابوا البحار وعبروا المحيطات غير هيّابين ولا عاجزين ، وقد
دفعهم هذا الشعور إلى التطلع والطموح شأنهم فيه شأن أجدادهم .

ورافق هذا الشعور حالة من الاستقبال ، شجعتهم على مغادرة أوطانهم، قاصدين أية
أرض تحقق لهم الغنى والثراء .

وهكذا نرى هذه الأسباب مجتمعة من (ضغوط اقتصادية أدّى إلى فقر البلاد ،
واختناق الحياة فيها . ثم تأثير المُبشرين الأجانب ، ودعايات السُياح وتشجيع شركات
الملاحة ، يكلل كل ذلك ميل طبيعي نفسي عندّ اللبنانيين إلى المخاطرة وركوب الأهوال
في سبيل العيش والكسب)[1] ولم تكن ظروف المهاجرين في بيئتهم الجديدة سهلة ،
خصوصاً في أيامهم الأولى التي حطوا فيها الأرض الأمريكية ، خصوصاً أن معظمهم كانوا
فقراء ، إذ لم يمتلكوا أو يحملوا معهم في سفرهم ، ما يُهيئ لهم عملاً أو يدر عليهم كسباً
لذلك كان عليهم أن يواجهوا الحياة بالعمل الجاد والكفاح المتواصل والإرادة القوية .

وقد عانوا فور وصولهم القارة الجديدة الحرمان والفقر ، فتمزقت نفوس الكثيرين
منهم وشعروا بجرح كرامتهم ، وتمنى بعضهم لو لم يَقدِم على الهجرة . ولاحت لهم صور

(1) شعراء الرابطة القلمية : نادرة جميل سراج / ٤٩.

لبنان وجبالها وسفوحها وشواطئها ، وخضرة سوريا وأنهارها وبساتينها ، بما يُجسد حنينهم إلى بلادهم ويعكس حياتهم الصعبة الجديدة ، بما يثير العواطف الإنسانية والأحاسيس القوية .

وتصور أبيات الشاعر مسعود سماحة ، تلك الرحلة المضنيّة من حياة المهاجرين بقوله :

كم طويت القفار مشياً وحملي ... فوق ظهري يكاد يقصم ظهري
كم قرعت الأبواب غير مبالٍ ... بكلال وقر فصل وحرّ
كم ولجت الغابات والليل لجو ... وميض البروق شمسي وبدري
كم توسدت صخرة وذراعي ... تحت رأسي وخنجري فوق صدري

على أن الذي استطاع أن يحول بينهم وبين الهزيمة والاستسلام ، صبر طويل وصمود شديد ، أعانهم على أن ينهضوا بموقفهم ، ويحققوا شيئاً فشيئاً طموحاتهم ، ويجسدوا أحلامهم وأمانيهم . إذ لم تمر سنوات قليلة حتى تحولت تلك الحال إلى حال أفضل ، بعدَ أن تكيفوا للبيئة الجديدة ، وأخذوا بأسبابها المادية والحضارية والاجتماعية ، حتى صارت تلك الأرض الجديدة والأصقاع البعيدة ، موطناً لهم ، يعيشون مع أهله ، ويتفيؤون بظلاله ، ويعملون يداً بيد مع الذين مدوا لهم يد العون .

لكن ذلك الثراء والمجد لم يقطع تلك الجسور التي كانت تصلهم بوطنهم وبأرضهم ، ولم تبتعد بشعورهم عن حب أهلهم وإخوانهم ، لذلك ظل شعر الحنين من أخصب الموضوعات التي تغنوا بها اعتزازاً وشوقاً وحباً .

النشاط الأدبي :

وقفنا فيما تقدم على بواعث الهجرة وظروفها ، ورأينا أن المهجرين قد صمدوا لعاديات الزمن ، حتى تحقق لهم في آخر الأمر مستوى من الحياة أعانهم على الاستقرار .

ويهمنا هنا ، التعرف على الجانب الأدبي من حياتهم ، وما أتسع له من نشاط في الشعر والأدب ، والذي أستطاع أن يشق طريقه في تلك الأصقاع البعيدة ، على الرغم من الصعاب التي جابهته . حتى أستوى له شكله ، فإذا هو يشق الحجب ويجوب الآفاق ، ويكون له شخصيته المتميزة وإبداعه الفني وتجديده الذي صار أهم ما يميزه من أدب الشرق . وصار له رواده في مجال الشعر والنقد والنشر . بل لقد صار أدب المهجر فيما بعد ، يستقطب النقاد والدارسين في الشرق قبل الغرب ، فكانت الدراسات الأدبية والنقدية من أهم مظاهر حركة التجديد في الأدب والنقد .

ولقد تمثل هذا النشاط ، فيما سعى إليه أدباء المهجر وشعراؤه من تأسيس الجمعيات الأدبية التي لبى نداء تأسيسها كوكبة من الشعراء والأدباء في أمريكا الشمالية ، فإذا بالرابطة القلميّة تعكس نشاطهم في الولايات المتحدة ممثلة بمجموعة يتصدرها جبران ونعيمة وأبو ماضي ونسيب عريضة ورشيد أيّوب وندرة حداد والريحاني وأمين مشرق وغيرهم .

وتقوم في المهجر الجنوبي جماعة العصبة الأندلسية ، ويتقدمها ميشال معلوف وشفيق المعلوف والشاعر القروي ونعمة قازان والياس فرحات وسلمى صائغ وغيرهم .

ويشتد نشاط هؤلاء وأولئك ، حتى تستنفر عدداً من المعنيين بأدبهم ، فيكتبون عنهم وينشرون نتاجهم ، ويطبعون دواوينهم ودراساتهم .

ويتولى ذلك نخبة من أشهر أدباء الأقطار العربية ، أمثال العقاد والمازني ومحيي الدين رضا ونادرة سراج واحسان عباس ومحمد يوسف نجم وعبد الحكيم بلبع وكمال نشأت وأنس داود ونظمي عبد البديع وعيسى الناعوري وغيرهم .

وليس هذا فحسب ، فقد كان للتجديد الذي حققه أدب المهجر ، صدى جيد في نفوس أدباء المشرق فإذا هم ينسجون على منواله ، ويكتبون على غراره ، وينتهجون نهجه ، فيكون لأسلوب جبران والريحاني وأمين مشرق ، صدّى في أساليب كثيرين من أمثال مي زيادة والمنفلوطي . بل أن أول تنظير نقدي عربي حديث ، ممثلاً بكتاب (الديوان) للعقاد والمازني يلتقي في أفكاره ومناهجه وآرائه بكتاب (الغربال) لميخائل

كما نشطت في كتابة المقالات النقدية ، وترجمة الأدب العربي ، ونشروا الكثير من الدراسات الأدبية والنقدية والأعمال القصصية والملاحم الشعرية . وقد وصل بعضها إلى الشرق .

ولم يقتصر هذا النشاط الأدبي لشعراء المهجر وأدبائهم على ما قدموه من شعر ونثر ، بل تجاوزه إلى النشاط الصحفي الذي أنشئ بعيداً عن الرابطة القلمية في الشمال والعصبة الأندلسية في الجنوب .

ومن ذلك (جريدة الهدى) و(مرأة الغرب) و(البيان) و(السمير) و(السائح) .

وكانت تلك الصحف والمجلات حريصة على اللغة العربية وأدبها وتاريخها .

الشعر واتجاهاته :

إذا كان شعراء الديوان وشعراء أبولو قد نهضوا بالشعر العربي في الشرق ، نهضة نقلته من حالة الجمود إلى حالة اليقظة ، واندفعت به إلى التعبير عن جوهر الحياة الإنسانية وتجسيد مضامينها المختلفة ، فقد كان شعراء المهجر في أمريكا يخطون خطوة مماثلة نهضت بالشعر نهضة واضحة ، عبر فيها الشعراء عن نفوسهم وما أختلج فيها من خواطر وأفكار وتأملات في النفس والحياة والطبيعة ، وجسدوا فيها مواقفهم تجاه هذه الأشياء ، بما كانوا يحسون به من آمال وآلام وخواطر وطموحات . وحول هذه المسائل دار شعرهم ، كما دار حولها شعراء المشرق . وهو توارد في الخواطر عجيب . وأعجب منه ما صدر عنه نقدهم الذي التقى نقد إخوانهم الذي تمثل بكتاب (الديوان) الذي أصدره العقاد والمازني . فإذا بكتاب (الغربال) الذي أصدره ميخائيل نعيمة ، يلتقي بخطوطه العريضة ، وأفكاره العامة ومنهجه الذي صدر عنه ، مع كتاب الديوان . وهذا يعني أن الجسور التي كانت تصل شعراء الشرق بشعراء المهجر قد أكدت وحدتهم الفكرية وما صدر عنها من مواقف متماثلة في الشعر ومفهومه ووظيفته وصلته بالحياة والناس والكون والطبيعة .

وقد تمثلت هذه الوحدة التي صدروا عنها في شعرهم ، في إعجاب ميخائيل نعيمة

والاتجاه الاجتماعي .

وتلتقي هذه الاتجاهات مع بعضها البعض الآخر وتتشابك ، لأن شعر المهجر يستقي من الإنسان والحياة والطبيعة موضوعاته ، وأنه يجعل من الشعر نفسه وسيلة لتجسيد الحياة والطبيعة والنفس الإنسانية .

وهكذا تختلط قصائد الطبيعة مع قصائد التأمل ، ويلتقي الوصف مع الشعر العاطفي وتتشابك الموضوع الاجتماعي مع الموضوع الإنساني .

الاتجاه التأملي النفسي :

ليس شعر التأمل الفكري والفلسفي جديداً في شعرنا العربي ، فقد أثار أبن الرومي وأبو تمام والمتنبي وأبو العلاء في شعرهم ، مسائل تأمليّة وقضايا فكرية ، لا يمكن أغفالها.

إلاّ أن أتجاه شعر المهجر التأملي ، أصبح يشكل ظاهرة عامة ربما فاقت كل خواطرهم الشعرية . وكانت الظروف القاسية التي واجهت شعراء المهجر ، سبباً في بروز هذا الاتجاه ؛ فقد ترك هؤلاء أوطانهم ، وغادروا أهلهم وأحبابهم ، وواجهوا في بيئتهم الجديدة ظروفاً اقتصادية ونفسية صعبة انعكست في شعرهم حنيناً إلى أهلهم وحباً لأوطانهم . فراحوا يُعبرون عنها بالمعاني المتناقضة من (يقين وشك ورضى وسخط وقلق وطمأنينة وغنى وفقر وتفاؤل وتشاؤم)[1] .

وعلى الرغم من أن هذه المعاني قد حققت في شعرهم تجديداً ملحوظاً ، وأنها جسدت ما كان ينتابهم من قلق واضطراب وحيرَة ، خصوصاً في المراحل الأولى من حياتهم إلاّ أنها تحولت فيما بعد إلى قضايا كبيرة زلزلت كيانهم ، وعمقت إحساسهم بالألم وانتهت بكثيرين منهم إلى زعزعة ثقتهم بالحياة والكون ، وصارت فيما بعدئذ تناقش الكثير من المسائل الجديدة ، بل أنها قد (جرّتهم في مجال النظر السطحي في قضايا الوجود والكون ، إلى مجال النظر الفلسفي الذي يناقش الأسباب ويبحث عن العلل

---

[1] حركة التجديد الشعري في المهجر . عبد الحكيم بلبع / ٢٠٠.

فأفضل الناس قطعاناً يسير بها ... صوت الرعاة ومن لم يمش يندثر
ليس في الغابات راعلا ... ولا فيها القطيع
فالمشتا يمشي ولكن ... لا يجاريه الربيع
خلق الناس عبيداً ... للذي يأبى الخضوع

✿ ✿ ✿

وما الحياة سوى نومٌ تراوده ... أحلامٌ من بِمُراد النفس يأتمر
والسر في النفس حزن النفس يشهره ... فإن تولى فبالأفراح يستتر
فإن ترفعت عن رغدٍ وعن كدرٍ ... جاوزت ظل الذي حازت به الفكر

والقصيدة ملحمة تأملية طويلة ، وكلها يأتي على هذا النسق الفكري الذي يتأمل الحياة ويناقشها . كما يبحث فيها تناقضات النفس البشرية وما ينتابها من خير وشر ولذة وألم وحق وظلم ، وينتهي إلى أن حياتنا المادية هذه ، هي التي تسودها المتناقضات ، بينما حياة الغاب هي حياة صافية بريئة خالية من كل ما يدنسها .

وقد شغل جبران نفسه بهذا الاتجاه ، وحقق في شعره مضامين فنية عميقة تؤكد نهاية ما توصل إليه في نظراته إلى الحياة البشرية القائمة ، وخلاصة ما يراه بديلاً لها . وتمثل قصيدته الرائعة(البلاد المحجوبة)هذا التفكير العميق الذي عبّر عنه بأسلوب سلس بسيط بعيد عن التعقيد.

وقصيدة البلاد المحجوبة ، تبين (أن المحور الأساس لتلك النزعة التأملية الفلسفية . هو الاهتمام بقضايا الإنسان ، والبحث عن كل ما يحقق له الأمن والسعادة ولو عن طريق العلم بعالم خير مثالي ، إذا لم يجد الإنسان سبيلاً إلى تحقيقه والوصول اليه في واقعه ، فلا أقل من أن يلتمسه داخل نفسه ، فهيّ المصدر الحقيقي لكل سعادة ينشدها ، وكل طمأنينة

معتمداً على أعمال شعراء الرابطة القلميّة)[1] بالذات .

✿ ✿ ✿

ومن أشد مظاهر الاتجاه التأملي في شعر المهجر ، فكرة وحدة الوجود التي يرى معتنقوها أن الله سبحانه وتعالى يتجلى في كل شيء خلقه ، في الإنسان والحيوان وفي النبات وفي الجماد ، بل وفي كل موجودٍ . يقول شكراً لله الجرّ:

وعـلام القول إن الله قد حجب عنـا
هو في النهر وفي الحقْل وفي الغصن تثنى
هو في البحر وفي الريح وفي الغابة عنى
هو في الأكوان منذ كانت وفينا منذ كنا

وعلى الرغم من أن العديد من شعرائنا المتصوفين القدامى قد عالجوا هذه الفكرة في شعرهم ، إلا أنها قد انطلقت منذ القرن السابع الهجري حيث بلغ أوجهاً عند محي الدين بن عربي وجلال الدين الرومي .

وظلت فكرة وحدة الوجود في الشعر الحديث تطفو على سطح القصيدة لدى الزهاوي والرصافي وغيرهما ،إذ لم تشكل ظاهرة شعرية واضحة، حتى تم لها ذلك عند شعراء المهجر.

فهذا شاعر الجنوب نعمة فازان يقول في وحدة الوجود :

رأيـت الـقـطـرة الـصـغـرى ... تـــروي غـلـــة الـقـفـــر
وحـالـت بـعـد ذا نـهـرا ... إلـــى آمـالـه يـجـري
رأيـت الـزهـرة الـزهـراء ... تـخـطـر خـطـرة الـعـجـب
بـسـاقـيـها نـسـيـم الـصـبـح ... كـاسـات الـنـدى الـعـذب
فـمـن زهـر إلـى تـرب ... إلـــى زهـــر إلـــى تـرب

(1) الأدب وقيم الحياة المعاصرة : محمد زكي العشماوي / ١١٤.